

في النظر الأدبي

الحقيقة في الأدب

معناها - قيمتها - مقاييسها النقدية - جدتها - صحتها - صلتها بالأدب

بقلم الأستاذ أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب

— ١ —

يُطلق بعض النقاد على موضوع اليوم : العنصر العقلي في الأدب —
The intellectual Element in Literature — ويعنون به الحقيقة أو
الفكرة التي يحتويها النص الأدبي بجانب العناصر الأخرى من لفظ، وخيال،
وانفعال (عاطفة) . وقبل أن نسير في البحث نحاول أن نبين هذا العنصر
بالتمثيل له أولاً . ثم مانراه أصلح الأسماء له ثانياً . قال أبو العلاء المعري :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زُجاجٌ ولكن لا يُعاد له سبكُ
أذكر أن هذا المثال قد مر بنا قبل اليوم ، وإنما أذكره ثانياً لبيان هذا
العنصر العقلي فيه حتى يكمل تحليله . ولا شك أن الانفعال الذي يثيره هذا النص
في نفوسنا هو السخط والتشاؤم بهذه الحياة . وقد استعان أبو العلاء على بعث
هذه (العاطفة) بهذا (الخيال) الزجاجي كما قدمنا فيما مضى . فهذان هما العنصران
الذان مضى فيهما الكلام .

والآن نترك العاطفة والخيال ، ونسأل عن ذلك الشيء الذي يدل عليه اللفظ
دلالة وضعية : ما هو هنا ، والإجابة عن هذا السؤال سهلة ، فالمراد أن ضحك
الناس خطأ ، وحقهم أن يبكوا . لماذا ؟ لأنهم الأعيب في يد الأيام تهلكهم

بخطوبها تم لا تعيدهم سالمين . هذا المراد - أو منظوق النص - هو الذى يسمى العنصر العقلى فى الأدب . وإتمادى على كذلك ليقابل العنصر العاطفى ، والخيالى ، واللفظى ؛ إذ أنه ليس حزناً ولا سخطاً . وليس فناً من هذه الفنون البيانية التى أشرنا إليها فى باب الخيال . هو الذى تعود الناس أن يسموه المعنى مقابلاً للفظ وهو الذى يطلق عليه النقاد المحدثون كلمة حقيقة Fact أو فكرة Thought أو الحق Iruth الذى يعد أساس المنشآت العقلية ، فكيف نسميه ؟ لا يزال من إخوانى من يصر على أن يطلق عليه - المعنى - وهو بذلك يقابل اللفظ مجازة للمتقدمين ، أو بعبارة أدق لبعض المتقدمين الذين لم يعنوا بهذه العناصر الأدبية الأخرى كالعاطفة والخيال . وإن أدركوا ما فيهما من قوة وجمال وأسأل هذا الفريق من إخوانى : إذا كان الأدب - كما قال الأقدمون عندنا - لفظاً ومعنى فى أى القسمين نضع سائر العناصر ؟ فمنهم من يتوقف ، ومنهم من يقول : الأدب لفظ ومعنى وعاطفة وخيال . ويكون بذلك مدعياً أنه خلق أو وضع لفظين جديدين لعنصرين جديدين .

وعندى أنه لا حاجة إلى هذا كله ، ولا معنى لهذا الادعاء . وخير لنا أن نصف المتقدمين إنصافاً حقاً ، ثم نقوى الاتصال بهم من جهة ما وضعوا من مصطلحات ، وما أدركوا للأدب من عناصر .

خير لنا أن نقول : إن الأدب - كالكلام - لفظ ومعنى . وأن هذا المعنى ينحل إلى عناصر ثلاث : العاطفة والخيال ، ثم الحقيقة أو الفكرة التى هى موضوع كلامنا الآن : وقد لحظ المتقدمون ذلك كله كما بسطته فى العدد الثانى من السنة الثانية لهذه الصحيفة تحت عنوان « بين اللفظ والمعنى » ، وعلى هذا الاعتبار أسير فى موضوع اليوم متكلماً فى هذا العنصر الثالث من عناصر الأدب وهو الحقيقة .

فى أية درجة نضع هذا العنصر العقلى بالنسبة إلى سائر العناصر الأدبية ؟
الأدب أدبان : نوع تكون الغاية منه التعليم وأداء الحقائق والإقناع كالنارخ

والنقد الأدبي ، والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وهو الذي أسميه أدب الثقافة ، وصار يدعى الآن الأدب بالمعنى العام ، ونوع تكون غايته مع ذلك ، التأثير وإثارة الانفعالات ، كالشعر ، والقصص ، والخطابة ، والوصف ، وأسميه أدب القوة — أو العاطفة — وهو ما يدعونه الآن الأدب بالمعنى الخاص .

ففي النوع الأول نجد هذا العنصر الحقيقي في الدرجة الأولى ، إذ أنه الغاية المقصودة ، والهدف الذي يرمى الكاتب الى نشره وإقراره في عقول القراء ، وأما العاطفة هنا ، فتعد وسيلة تخدم الأسلوب لتبعث فيه حياة وقوة ، وتساعد بهذا على فهم الأفكار وثبوتها في أذهان القارئ . . . والنقد الأدبي حينما يعرض لهذا النوع ، يحكم عليه أوله بناء على ما فيه من الحقائق والأفكار ، ثم لا ينسى مع ذلك مقدار ما صحب الحقائق من عاطفة تكسيها الروعة وقوة التأثير ، ويكون مثل العاطفة هنا مثل الشراب اللذيذ يذاب فيه الدواء ليسهل تعاطيه .

ولكن ما المقاييس التي يعتمد عليها النقد في تقرير هذه الآثار الأدبية العامة ؟ ثلاثة : كمية المعلومات ، ودقتها ، ووضوحها ؛ فنحن ننتظر من الكاتب أن يزودنا من الحقائق بما يستطيع ، وأن يؤديها صحيحة متميزة الحدود والخواص ، ثم يصورها بأسلوب واضح يجعلها سهلة الفهم والادراك ، فإذا حاول النقد الأدبي التعمق في درس هذه المقاييس وتفصيلها ، يكون قد تجاوز طوره ، وعدا حده ، إذ أن ذلك من مهمة علوم أخرى تعنى بها كالمنطق ، والفلسفة ، والبلاغة ، فالأولان يعنيان بالحقائق وصحتها ، والثالث يدرس طرق التعبير السهل الواضح لكل فن من الفنون الأدبية ، وسنعرض لشيء إجمالي منه في المقال التالي إن شاء الله تعالى .

وبعد ذلك لا يعدم النقد الأدبي مجالا ينفذ منه إلى هذا النوع من الأدب العقلي ، ذلك هو ما يلابس الكتابة من عاطفة . وأوهن درجة العاطفة هنا ، تراه في ثقة الكاتب بما يقرر ، ثم في عنايته بتوضيحه ، وأخيراً في حرصه على إذاعته واتصاله بحياة الناس النفسية أو الاجتماعية ، فنجد ذلك يولد في نفس الكاتب لذة وسروراً بما يكتب ، ويجعل للكتابة روعة ، وخفة وقع ، وشدة

تأثير ورواج ، ثم يكسب الأديب أنصاراً ومؤيدين ، ويهب لآثاره طابعاً فنياً يتجاوز به دائرة العلم الخاص إلى مجال الفن الجميل .

أما إذا أنام الكاتب عاطفته ، وأيقظ عقله معتمداً عليه وحده في التعبير دون أن تلصحه حرارة الشعور ، كانت النتيجة أنك تقرأ له هيكلًا عظمياً من الكلام لا تكسوه عضلات ولا أعصاب . وكان أخرى به أن يكون سجلاً لتدوين هذا الحساب العقلي ، أو هو علم ليس غير .

وأجدني — هذه المرة — حريصاً على أن أذكر بعض الأمثلة المعاصرة لتوضيح هذه الظاهرة . فهذا الأستاذ حسين في كتابه — في الأدب الجاهلي — أصدق مثال لهذا الأدب العقلي الذي يجمع إلى الحقائق والأفكار شعوراً صادقاً قوياً وهب لأسلوبه روعة وموسيقاً لا تكاد تتحقق لغيره من الكتاب . وسبب ذلك ، فيما أرى ، صدق يقينه بما يكتب ، وحرصه على نشره ، وعرضه بشيء من التحدى والاستفزاز ، حتى ليصح أن يدعى بالكاتب الذي يقع على الحقيقة العلمية الخالصة فيحيلها أدباً أو فناً بهذا الأسلوب الواضح القوي الجميل .

أما زميله الأستاذ أحمد أمين — في فجر الإسلام أو ضحاها — فقد غلبت على آثاره الناحية العقلية ، واتجه حرصه الأول والأكبر إلى تقرير الآراء والقضايا العلمية مخلصاً لها ، فامتاز أسلوبه بالدقة والوضوح وإن أعوزته نغمات الموسيقى ، وروعة الجمال .

ومهما يكن من الأسباب الموضوعية والشخصية لهذه الفروق ، فانا قد ظفرنا من الرجلين بالأديب العالم ، وبالعالم ... الأديب . والأستاذ العقاد — في فصوله المنشورة — يمكن أن يكون شخصية تتوسط هذين ، فلا شك أن أفكاره خصبة دسمة ، وليكنها مع ذلك تترامى لك في أسلوب قوي تستشف منه اعتزازاً بالنفس ، وتمسكاً بالرأي ، وإخلاصاً للفكرة ، جار على كثير من سلاسة الأسلوب وجماله الموسيقي .

ويعيش بيننا الآن طائفة من الكتاب يتمايزون فيما بينهم بصفات يستطيع القاري المتوسط إدراكها كفتور العاطفة ، والفتنة بالموسيقى الصناعية ، والاعتماد

على الصور المتتابعة إلى غير ذلك مما مرجعه درجة الشعور الذي يسيطر على الكاتب وهو يستوحى القلم والضمير .

— ٣ —

وأما النوع الثاني وهو الأدب بالمعنى الخاص — أو ما يسمى الأدب الصافي Pure Literature فإن غايته الأولى بعث العاطفة وإثارتها، وتعد الحقيقة فيه وسيلة ولكنها وسيلة لازمة لا قيمة للعاطفة إلا بها، فإذا كان الأدب هنا كالسفينه، كانت الحقيقة دفتها، والعاطفة هي الشراع أو البخار، وليبان ذلك نعود إلى مثال المعرى المذكور آنفاً ونسأل أنفسنا عن السر الأول في هذا السخط الذي بعثه أبو العلاء، ولو في بعض النفوس. هذا السر يبدو أولاً في ناحية الحقيقة أو البرهان الذي دعم به دعواه، وهو ما ينالنا من فناء إلى غير عردة في الحياة، فهذه الحقيقة القائمة على الواقع المشاهد صورت للناس — أو لبعض الناس — حياتهم لعبة خاسرة، فسخطوا، ولولا هذا البرهان، لبقيت العاطفة دعوى لا تعتمد على أساس فتذهب هباء لا يبق.

وهنا تبدو لنا هذه المنزلة الخطيرة التي تنزلها الحقيقة في هذا النوع من الأدب الخالص، فليس حقاً ما قديتوهمه الناس من أن الأدب صور خيالية تافهة أو عواطف مزعومة أو أفاكيه وعلات الفارغين، وإنما الحق أن هذا الأدب يقوم على أصدق القوانين العقلية، فيعرضها عرضاً قوياً صادقاً يجمع بين عمق التفكير وجمال التعبير .

وعند ما يعرض النقد الأدبي لهذا النوع، يسأله عن الحقائق التي يحتويها؛ ما قيمتها وما كميتها بجانب سؤاله عن العناصر الأخرى، وأعظم الشعراء هم رجال المعارف الواسعة، والتجارب الصحيحة، والآراء السديدة، والتفكير العميق، ويقول كارليل: « إن الشاعر الذي يستطيع فقط أن يجلس على الكرسي وينشئ النظم، لا يمكن مطلقاً أن يقول ما يستحق القراءة . »

وتجد الآراء القوية والعقائد المسيطرة على الحياة أو العصور قد تناولها الشعر، ولخصها في تركيز الفن لافي سفسطة الحواشي والشروح .

من هم زعماء الشعر العربي؟ ومتى وجدوا؟ وماذا نفيد منهم؟ هم شعراء المعاني الذين انتهت إليهم خلاصة الثقافة الإسلامية، كأبي تمام، وابن الرومي، والمتنبي، والمعري، وهم الذين بعثوا بسبب شعرهم فن النقد الأدبي، وهم الذين كثرت حولهم المؤلفات، وقامت المدارس، وغذوا الأدب العربي بثروة لا تبلى، وجد هؤلاء في العصور التي نشطت فيها حركة التأليف والترجمة، فدرسوا وتثقفوا حتى برى شعرهم من سفاسف القول، وبدت فيه نواح موضوعية شتى، وامتازت شخصياتهم الفنية بقدر ما تيسر لهم من الثقافة والعرفان، ولا شك أنا نفيد منهم فوق الأساليب، هذه المعاني المخترعة، والحقائق الأدبية، وحسن تصوير الفترات التاريخية التي عاشوا فيها. ألم تتركز أنواع الحياة في القرنين الرابع والخامس في شعر المتنبي وأبي العلاء؟ ثم لاحظ الفرق الواضح بين النثر العربي بداءة العصر الحديث وبينه الآن، تجد أننا نعيش في خير عصور النثر الأدبي، وذلك لهذه الثروة الفكرية التي يذخر بها هذا الفن العظيم فلم تذهب بحمالة وزادته قوة وسلطانا على نواحي حياتنا الحاضرة.

وهنا نصل إلى نقطة أخرى تفصل بين هذين النوعين من الأدب، وهي جدة الحقائق. هل يجب أن تكون الأفكار الأدبية جديدة غير معروفة للقراء؟ أما النوع السابق — كالنقد والتاريخ — فمن الضروري اشتماله على معارف جديدة نفيد منها مادام يرمى إلى التعليم والتثقيف، لأن الناس لا يميلون إلى قراءة كتاب أو مقال يخبرنا عن شيء نعرفه من قبل جيد العرفان، ولكن النوع الثاني لا يلتزم هذا القانون إذ كانت مهمته الأولى التأثير، والتصوير، ويحسن أن نفسر هذا الكلام ببعض الشيء.

لو حاول الشاعر أن يحشد في نظامه حقائق الحياة أو العلوم، ويجعله جلا فلسفيا — كما فعل المعري في اللزوميات — استحاله فنه علما وصار كلامه أشبه بالمنظومات العلمية، ويكون الشاعر هنا قد ترك مهمته التعبيرية إلى مهمة العالم التقريرية. ليست وظيفة الشاعر الجمع والتقرير، بل الاختصار والتصوير، فتجده كثيراً ما يتناول الأشياء المنظورة أو الأفكار المشهورة ويحاول تفسيرها أو

تعليلها تعليلافنياً ، وفي ذلك تظهر براعة الشاعر وجدة معانيه . ولنذكر مثالا لذلك قول المتنبي في شعب بران :

غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجب الحر عني وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان

فنعصر الحقيقة في هذه الآيات هو أن الندى يسقط على أعراف الخيل حين سارت في الشعب صباحاً ، وقد حجبت الغصون عني حر الشمس ووصل إلى من الضوء ما يكفي نافذاً من بين الأغصان . وإذا حاولنا أن نجد له جدة أو قيمة عجزنا ، فلم يعد هذه الأخبار العادية التي لا تستوقف الفكر ، ولا تزيد ثقافة ، ومع ذلك فالشعر رائع جميل ... لماذا ؟ لأن الشاعر هنا يعرض الوصف الحسي لاجمال فيه للفلسفة والأفكار العلمية ، فاعتمد في التجديد على الناحية التصويرية كما ذكرنا في الكلام على الخيال ، وأخذ هذه الحقائق التافهة وكساها بتصوره وتصويره فنوياً خيالية بديعة كانت أحسن العوض من ثراء الحقائق والآراء . وليس ذلك سهلاً على الشاعر . فانظر إليه يعرض علينا الأغصان إنساناً ينثر الجمان على أعراف الخيل ، ويوصل إلى السائر ما ينفعه ويحجب عنه ما يؤذيه وهذه الشمس حين أشرقت نثرت عليه دنانير لا تستقر في اليد ، حتى قال عند الدولة حين سمع ذلك : والله لألقين فيها دنانير لا تفر ... وقد فعل .

وهذا بعينه هو ما يقال في هذه الآيات التي أنعت ابن قتيبة ، والعسكري والجرجاني وغيرهم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هوامسح

الآيات — فلن نظفر منها بحقيقة فلسفيه أو علمية ، ولكن ناحية التصوير باللغة في الحسن درجة ممتازة كما بينا ذلك في موضع سابق من هذه الصحيفة .

ويقول ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجعلانصب العين ، فيكونا متكئا واستراحة

وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له وبنى عليه لا ماسواه ،
ولكن الأدب العظيم هو الذى يجمع بين هذه الجودة فى التصوير وبين الجودة فى التفكير ، فيعرض علينا الفكرة القيمة ، والصورة الحسنة ، ليكون نافعا ومؤثرا ، وهذا هو ما فعله المتنبي حين قال :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم
ون عرف الأيام معرقى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

هنا تجد قرابين خلقية ، واجتماعية ، ونفسية تجعل العنصر العقلى غاية الثراء والافادة . وتجد صنوفا من التصور جعلت التصوير الخيالى أقوى ، وأجمل ما ينتظر الفنى الأديب . فمن الجهل ما يكون هو الحلم إذا دعا الصلاح الى المظالم ، ومن اللازم الحتم أن تتركب شر المراكب حين لا بد منها للحياة ، فالناس لئام لا يحترمون إلا القوة ولا يرحمون ضعيفا ، ومهما يكن من المبالغة أو التعميم فى هذه الآراء ، فهى شئ له قيمته يصور لنا هذه الشخصية المجربة الثائرة .

ولا أظننى محتاجا إلى بيان هذه العناصر الخيالية التصويرية فقد مضى لها أمثلة كثيرة ، وحسبك أن تلاحظ أن عناصرها الدموية ، والحربية ، أليق العناصر بتلك الأفكار الثائرة النافذة أولا ، ثم هذا الجمال والتناسب فى طرق تأليفها استعارة وكناية ، حتى كان بعد التصور كفاء لقيمة الأفكار .

— ٤ —

على أن آراء المتنبي هذه تسلمنا إلى نقطة أخرى فى هذا البحث : يجب أن تكون هذه الأفكار صحيحة لا يتطرق إليها خطأ ؟ ألسنا نستطيع الحصول على أدب جميل قيم مع اشتماله على أفكار خاطئة أو آراء سخيفة ؟ لا شك أن عرض هذه المسألة قد يسرع فيثير فى النفوس القطع أو الميل إلى الإجابة عن السؤالين بكلمة . نعم ، ولكن المسألة مع ذلك موضع جدال عريض بين النقاد

كل يتأثر بمزاجه الديني ، أو العلمي ، أو الفني ، ولست أقصد بالخطأ الكذب أو بعد الخيال والمبالغة مما عني به ابن رشيق وأضرابه ، وإن كان لذلك أثر ما فيما نحن بصددّه . إنما أقصد الأديب الذي يعرض الحقيقة فيعكسها أو يخطئ في فهمها العلمي أو الفلسفي . وأقصد الراوي الذي يقيم فكرة روايته أو خطتها على نظريات خاطئة من ناحية التاريخ أو الاجتماع . قال أبو تمام :

ألذ من الماء الزلال على الظما وأطرف من مر الشمال بيغداد
وقد لحظ الجرجاني فساد الفسكرة هنا فأخذ على أبي تمام أنه جعل الشمال
طرفة بيغداد وهي أكثر الرياح بها هبوبا . وقوله :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد
ذهب الجرجاني في تفسير هذا البيت مذهبا جعله فاسدا ، لأن الشاعر جعل البلاد إنما تضيق بأهلها لضيق الأرض وأنها لو اتسعت اتساع صدر الممدوح لم تضق البلاد ؛ ونحن نعلم أن البلاد لم تخطط في الأصل على قدر سعة الأرض وضيقها . وأن الأرض تتسع لبلاد كثيرة ، وإنما تضيق البلاد بأهلها لتزاحمهم فيها مع سعة الأرض . وقوله :

سبعون شهراً كلها في كله لي عايق عن منزلي وبلادي

فجعل للكل كلا ، كما جعل للدهر دهرًا في قوله : —

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهرًا أي عبايه أقل
وهنا أخطاء مذكورة تتصل بالتصوير لا بالتفكير كقوله :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ، ماماريت في أنه برد

والبرد لا يوصف بالركة وإنما يوصف بالصفاء والدقة . ومثل ذلك النقد مشهور في هذه الصورة : لا تسقني ماء الملام . ولكن خطأ التصوير ليس مكانه هنا فلنتركه إلى مسألتنا .

هذه الآيات التي ذكرت فاسدة المعنى كما يقول الأقدمون ، ويعنون بذلك فساد الفسكرة أو الحقيقة . ومع هذا ففيها روعة ، وجمال ، وتأثير ، أي أنها أدب قيم على الرغم من هذا الخطأ ، ولذلك يرى كورثوب Courthope ، أن

قيمة الشعر لا تتوقف على صوابه الفلسفى لكن على ملامته لأغراض الفن . ومعنى هذا أن الصواب فى الأدب من حيث الأفكار — شئ ثانوى ، وأن القيمة الجديدة فيه تتحقق من ناحية التعبير والتصوير ، وذلك يكون بمثل حسن التعليل ، وجمال التشبيه ، ودقة الكتابة ، وسلامة العبارة ، حتى لقد سئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هجو ذويك ومدح أعاديك . يريد الذى تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وصمة وخلاف للشهوة ، وهذا قول أبى الطيب أولاً : —

واسمع من ألفاظه اللغة التى يلذ بها سمعى ، ولو ضمنت شتمى

ومثل هذا قيل فى صلة الشعر بالدين حين يفصل النقاد بين عقيدة الشاعر ودرجته الفنية فى التعبير الأدبى حتى قال الجرجاني : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاب من أصحابه ، بكاء خرساً ، وبكاء مفحمين ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر ، — فأنصار قبول الخطأ الفكرى فى الأدب يتساجحون فى التضحية بالصواب ، معتمدين على أن الأدب ليس علماً . ولا فلسفة مما يطالب بالصدق فى الحقائق ، ولكنه فن تبدو ميزاته ، وتنحصر مهمته فى العناصر الأخرى كصدق العاطفة ، وروعة الخيال ، وموسيقا الأسلوب ، وقد مرت أمثلة لذلك .

غير أنه لا يفوتنا هنا أن نعترف بأن هذا الأدب الذى — على جماله — يعوزه الصواب ، لا يتساوى فى قيمته الفنية مع هذه النصوص الأخرى التى فازت بصحة الفكرة وجودة الأداء ، وذلك لأن الأدب كما يقولون ليس إلا تصويراً للحقائق بوساطة الخيال ، فإذا ما عرض للحقائق منحنياً أثر ذلك فى هذا التصوير وهون من حسنه وقيمه ، أما إذا وجد الخيال سنداً من قوة الحقيقة ، وصدق التفكير فهناك الشعر الجميل الخالد .

ويرحم الله أبا العلاء فقد قال :

كل بيت للهدم ، ما تبني الورق قاله السعيد الرفيع العماد
والقبي ظاعن ويكفيه ظل السدر در ضرب الأطناب والأوتاد
بان أمر الإله ، واختلف الناس فداع إلى ضلال وهاد

— ٥ —

وهنا أتى بنواح شتى عميقة معقدة تتم الكلام في هذا العنصر الأدبي الخطير وتتصل أشد ما تتصل بفنون لما تنضج في الأدب العربي ، كالقصص والرواية التمثيلية ، وتتناول شرح بعض المذاهب الفنية العامة والأدبية الخاصة ، كالواقعية Realism والمثالية Idealism ، والكلام فيها يمل ، ويطول ، وتعوزه فصول خاصة مطولة قد لا تحتملها الصحيفة ، ولكني أتركها على أن أعود إليها حين تضطرني الدواعي والمناسبات .

وأختم هذا البحث بنقطة يوضحها السؤال الآتي : — ما الصلة ، إذا ، بين الأدب والحقيقة ؟ وهل يحرص الأدب الخاص على تناول جميع النقط والأفكار التي تعرض له واصفاً ، أو غزلاً ، أو رائياً ، أو راوياً ، أو خطيباً ؟ أبسط ما نعرفه عن هذه الصلة أن الحقيقة عنصر من عناصر الأدب تدخل في تدوينه لاغنى له عنها ، بل لا وجود له ولا خلود بدونها ، وقد استوفينا شرح ذلك في الفصول السابقة ، والآن نلفت النظر إلى شيء آخر هو أن الاستقصاء وتناول الجزئيات التفصيلية ليس من طبيعة الأدب ، بل من وظيفة العلم الذي يعنى بكل شيء حتى يستطيع التقسيم ، والتبويب . والموازنة ، وإصدار الأحكام الحاسمة .

فهذه الصلة تقوم على اختيار الأدب ببعض الحقائق ، أو المناظر ، أو الحوادث الهامة التي يجد فيها ما يؤثر به في القراء والسمعين ، وسيله إلى ذلك أن يقع الأديب على هذه الجوانب التي أثارته أو راعته — لأنه أدرك فيها جمالاً مخبواً أو سرأ عميقاً — فيعرضها في أسلوبه الصادق ، وقد مثلنا لذلك برثاء البحترى ووصف ابن خفاجة وهذا شوقي في قصيدة أبي الهول ، راعه منه شباب دائم ، وعمر مديد ، وسفر في خلال الحقب ، وسخرية بالملوك والدول ،

إلى غير ذلك من أسباب العظة والاعجاب ، فهل أحصى شوق سنيه وأيامه ،
ونواحيه وأحجاره ، كلا فليس عالماً مدققاً ، ولكن فنياً مفسراً . وهل يعذر النقاد
المحدثون حين يأخذون على معلقة طرفه استقصاء ، ودقة ، في وصف الناقة ،
ليس من طبيعة الشعر ؟ وهل تبيح لهم هذه الظاهرة العلمية أن يرفضوا أو يشكوا
في صحته ، وأن يفرضوا أنه من صنعة العلماء ؟

ومن بدائه الحياه وعجائبها ، وعظمة الفنون وتنوعها ، أنك لا تجد اثنين من
الأدباء يتفقان في كل ما يختاران من نقط التأثير لاختلاف الأمزجة ، والآراء
والشخصيات عامة ، فتجد من آثار الشعراء ، والكتاب ، والروائيين ، صوراً
شتى للشئ الواحد . وكلها — على اختلافها — جميلة . مؤثر ، صحيح لا تنكره
قواعد الفنون والآداب ، ومن هذه الناحية يخضع الأدب لسلطان الشخصيات ،
الذي يرفضه العلم ، ويمده خطأً وجناية على حقائقه الموضوعية الخالصة ، ولا
أجدني محتاجاً إلى تكرار ما سبق من الأمثلة التي توضح هذه الظاهرة ، فإن
فعلت أنقلت حين يحتاج القراء إلى الراحة من هذا العناء ؟

أحمد الشايب

